obeikandl.com

obeikandl.com

٥٨٤ - **مسألة**: قالوا: ثم ذكر تعالى مـا يدل على أن الكافر لا سبيل [له] إلى سمع الكلام والاستـدلال، فقال: ﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا**﴾(١).

والجواب عن ذلك: أن ظاهره لا يقتضى أنه لا يسمع، ولا إثبات الوقر فى أذنيـه؛ لأنه تعالى شـبهـه بمن هذا حاله، لا أنه أثبـته بهـذه الصفـة!! لو استدللنا بذلك على ما تأولنا عليه سائر الآى، من أن المراد التشبيه لا التحقيق لصلح؛ لأنه كـشف ما ذكره هـاهنا على أن مراده فى كل مـوضع هو تشبـيه حالهم، من حـيث أعرضوا عن الاستـدلال بما سمعوا، بحـال من لا يسمع للوقر والصمم.

٥٨٥ - فأما قـوله تعالى: ﴿**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ**﴾(٢) فلا يدل على أن غير الله لا يفعل؛ لأن الكلام إنما يقتـضى أمرا مخصوصًا، وأنه خلقه دون غيره، وإنما بذلك على أن مـا يدعونه من دون الله إلهًا لا يخلق، ولا يملك ضرًا ولا نفعًا. ولو صح أن المراد بذلك الخلق، لكان إنما يدل على أن الأشيـاء المعينـة لا يخلقونهـا، وكذلك نقـول. أو لكان يدل على أنهم لا يخلقون، وإن كانوا يقدرون ويفعلون، فلا ظاهر للقوم يتعلقون به.

٥٨٦ - وقوله من بعد: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ**﴾(٣) لا يدل على أن فعل الجـادف للفلك من خلقه تعالى، وإنما يدل على أن المجـرى لها

---

(١) سورة لقمان: الآية ٧.

(٢) سورة لقمان: الآية ١١.

(٣) سورة لقمان: الآية ٣١.

obeikandl.com

بالرياح؛ لأنها النعمة التى يجرى بهـا الفلك. أو أنه يجريها بما يفعل فى الماء من شدة الجرى؛ لأن كلا هذين الأمرين يقتضيان جرى الفلك.

٥٨٧ - وقوله تعالى قبل ذلك: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ**﴾[1] يدل على أن كلامـه محدث، من جهات.

منها: أنه وصـفه بأنه كلمات، وذلك لا يـصح إلا فى المحدث المنظوم ضربًا من النظام، والمخالف فى ذلك لا بقوله فى كـلامه إنه أشياء، لكى يتم له بزعمه القول بقدمه!

ومنها: أنه جوز عليه النفاد، وذلك لا يصح إلا فى الحوادث.

ومنها: أنه وصف نفسه بالقدرة على ما لا نهاية له منها، وذلك يقتضى أن الموجود منها لا يكون إلا محدثًا.

***

(١) سورة لقمان: الآية ٢٧.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٥٨٨ - دلالة: قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[١] يدل على نفى القبائح عن فعله؛ لأنه لو كان الخالق لما يحصل منها، لم يجز أن يصف خلقه بذلك؛ لأن فاعل القبيح لا يكون محسنًا فيما خلق، لا على وجه الإحسان، ولا على وجه الحسن، بل يجب أن يكون مسيئًا بما يخلق من تعذيب الكفار؛ لأنه أوجد الكفر فيهم ثم عذبهم، فهنا تمدح نفسه بوجه يبَين به من كل فاعل؛ لأن سائر الفاعلين يفعلون الحسن والقبيح، فتَمدَّح تعالى بأنه المختص، بأنه لا يفعل إلا حسة.

٥٨٩ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه لم يشأ من الكفار الإيمان والهدى، فقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[٢].

والجواب عن ذلك: أن الآية واردة فى أهل النار، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[٣] فطلبوا من الله الرجعة، لكى يفوزوا بالنجاة مما حل بهم من العذاب، فقال تعالى جوابًا لهذا القول: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾.

يعنى: لو أراد لفعلنا ما طلبوه من الرجعة، وسماها هدى؛ لأن ذلك يتضمن الفوز والنجاة. ثم بين أن وعيده السابق هو الواجب، فقال: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٤].

---

(١) سورة السجدة: الآية ٧.

(٢) سورة السجدة: الآية ١٣.

(٣) سورة السجدة: الآية ١٢.

(٤) سورة السجدة: الآية ١٣.

obeikandl.com

وقد قيل: إن المراد نفس الثـواب، [أى] أنا لو شئنا لأثبناهم وخلصناهم بالمغفرة مما هم فيه.

وقد قيـل: إن المراد بذلك الإلجاء، فكأنه تعالى قال: ولو شـئنا لألجأنا كل نفس إلى الـهـدى والإيمـان، ولآمنوا عند ذلك، لكـنا أردنا على وجـه الاختيار، فمتى عصى الواحد وكفر فليس إلا النار، للوعيد السابق.

٥٩٠ - وقوله: ﴿**أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ**﴾[١] يدل على أن الفاسق لا يساوى المؤمن فى الجنة والثواب، ولو كان الأمر كما يقوله كثير من المرجئة، لكان قـد ساواه فى ذلك. وبين بما بعده ذلك مفصـلا، فقال: ﴿**أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا**﴾[٢].

ولو كان الفاسق يخرج من النار، إما بانقطاع مـا يستحقه من النار، أو بالشفاعة، لما صح ما ذكره تعالى مـن أنه كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيهـا، بل كان يجب أن يقال: إنهم يريدون الخـروج فلا يعادون فيـها! وهذا يكذِّب الظاهر!!

٥٩١ - وقوله تعالى: ﴿**ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾[٣] لا يدل على أن جمـيع ما تقدم فى الكفـار؛ لأن بعض الكلام إذا استقل بنفـسه لم يجب تخصيصـه بما يتعقبه؛ ولأن فى الفسـاق من يكذِّب بدوام العقاب ولا يقطع، فهو مكذب على بعض الوجوه، وذلك يوجب دخوله فى الظاهر.

---

(١) سورة السجدة: الآية ١٨.

(٢) سورة السجدة - الآيتان ١٩، ٢٠.

(٣) سورة السجدة: الآية ٢٠.

obeikandl.com

٥٩٢ - فأما قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً**﴾[1].

* * *

(١) سورة السجدة الآيتان ٢٣، ٢٤.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٥٩٣ - دلالة: وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[١] يدل على تنزيهه عن الكذب، وذلك أنه لو كان يخلقه لكان قوله خطأ من وجهين: أحدهما: أن نفس الكذب ليس بحق. والثانى: أن ذلك يمنع من الثقة بصدقه، فلا يوثق به على وجه من الوجوه!؟ فإن قالوا: إنا نقول إنه يخلق القول الكذب، ولا نقول: إنه يقول الكذب، فلا يلزم ما قلتم. فهذا فاسد؛ لأن فاعل القول لابد من أن يكون قائلا، ووصف بأنه قال ويقول: على حسب المضى والاستقبال، ولا يعرف فى اللغة سواه.

وهذا يوجب، لو فعل الكذب، أن يكون قائلا ما ليس بحق، وقد نفى الله ذلك عن نفسه.

٥٩٤ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه تعالى يعاقب المكلف بمالا يستحقه، فقال: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[٢].

والجواب عن ذلك: أنه تعالى ذكر أنه يضاعف لها العذاب، ولم يقل: إن الذى يفعله من ذلك لا تستحقه! بل ظاهر وصفه لذلك بأنه عذاب، بعد ذكر المعصية، يقتضى أنه مستحق به، فلا يصح تعلقهم بالظاهر.

فإن قال: فكيف يصير عقوبة ما تأتيه أزواج النبى، ﷺ، ضعف عقوبة غيرهم؟

قيل له: لوجوه تجوز فى ذلك، منها: أن ما يفعله من ذلك يغم رسول الله، ﷺ، ويعظم ذلك عليه، فتعظم المعصية لذلك، ويزيد عقابها له،

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٠.

obeikandl.com

ومنهـا: أن نعم الله تعـالى عليـهن، بموقعـهن من الرسـول، ﷺ، أعظم، والمعصية للعظم لأجل عظم نعمة المعصى، كما أن معصية الأب لأجل عقوقه مـالا تعظم معـصيـة الأجانب. ومنهـا: أنه يجـوز أن تقع بفعلهن المعـصيـة والفاحشة من الفساد، والتأسى من سائر النساء، وكان لا تقع لولاه، فعظمت المعصية لأجل ذلك لو وقعت منهن.

فإن قال: فكيف يصح وقوله تعالى: ﴿**نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ**﴾[1] هذا المعنى، وقد علمنا أن عظم النعمـة كما يعظِّم المعصية يصـغِّر الطاعة، فكان يجب فى أجر طاعتهن أن ينقص.

قيل له: لو كان لا يزيد أجرهن إلا لهذا الوجه لوجب ما قتله، لكنه لم يمتنع أن يحصل فيه من سروره رسول الله، ﷺ، وانتفاعه به ما يعظم لأجله [و] من زوال الغم عن قلبه، ما يختص بـذلك لأجله. أو لتأسى سائر النساء بهن فى ذلك، فيحصـل لطاعتهن من المزية نظير ما كان يحـصل للفاحشة لو وقعت منهن، وهذا ظاهر.

٥٩٥ - **مسألة**: قـالوا: ثم ذكر تعـالى على أنه الفـاعل للكفر والمعـاصى والذاهب بهـما، فـقال: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[2].

والجواب عن ذلك: أن ظاهر الرجس فى اللغة ليس هو الكفر والمعصية وبأن تنطلق على النجاسات والأمور التى تسـتقذر أولى، فلذلك سمى الله ما هذا حاله رجسًا، والمر والميتة، فإذا صح ذلك فلا يصح تعلقهم بالظاهر.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣١.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

obeikandl.com

وبعد، فـإن ظاهره يوجب أن هل البيت ما ذكروه من الكفـر والمعاصى حاصل فأزاله وأذهبـه، وهذا معلوم فساده، والمراد بالكلام أنـه خصهم لمكان رسول الله، ﷺ، بضروب الألطاف والكرامـات، وطهرهم بذلك، وفضلهم تعالى على غيرهم.

٥٩٦ - قوله جل وعز: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ**﴾[1] فالمراد به الإيجاب والإلزام.

وقد بينا أن ذلك داخـل تحت ما ينطلق عليه «القـضاء» فى اللغـة، فلا يصح حملهم على أنه الخالق لذلك فيهم، فخرجوا فيه عن الاختيار.

وبعد، فإن القوم إن قالوا بأن ذلك من خلقـه تعالى، فإنهم لا يصفون العبد بأنه لا اختيار له ولا خيرة، وذلك يبين صحة ما قلناه.

٥٩٧ - وأما قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾[2] فقد بيـنا أن ظاهر النور والظلمات لا يفيد أن الكفـر والإيمان، ومتى حمل عليهما فقد اعترف فيه بأنه مجاز.

والمراد بذلك: أنه يرحم العباد بالألطاف، فيـخرجون بها من الكفر إلى الإيمان، ولذلك قال من بعد: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾[3].

٥٩٨ - وقوله تعالى قبل ذلك: ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا**﴾[3] فالتعلق به فى أن العقد من فعله تعالى بعـيد؛ لأن المزوِّج فى الشاهد ليس هو الفاعل لعقـد التّزويج؛ لأن العـقد لا يتم به، وإنما يوصف بذلك لأنه فـعل ما عنده

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٦.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٣.

(٣) تتمة الآية ٤٣.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

obeikandi.com

يصح من الزوج الفعل الذى به يستبيح الاستمتاع، والله تعالى قد فعل ذلك وسهله للرسول، ﷺ، بوجوه كثيرة، لولاها لما حلت له، ﷺ، فعلى هذا يحمل الكلام.

٥٩٩ - دلالة: وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾[١] نصٌّ فى حدوث القرآن؛ لأن فى جملته أوامر [و] قد نص تعالى أن أمره مفعول، وللمفعول لابد أن يكون محدثا.

واختلف العلماء فى الأمر، فمنهم من يقول: إن ظاهره يقتضى القول المخصوص، فإذا استعمل فى الأفعال فهو مجاز. ومنهم من يقول: إنه حقيقة فى الأمرين، وعلى كلا الوجهين فالاستدلال بالظاهر صحيح، إلا أنه فى أحد الوجهين يكون أخص، ودلالته من الوجه الآخر أشهر.

٦٠٠ - وقوله تعالى من بعد: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[٢] يدل على ذلك أيضًا؛ لأن المقدور هو الذى يصح من القادر أن يفعله ويوجده، وإنما يوصف الموجود بأنه مقدور من حيث كان هذا حاله من قبل، وذلك يقتضى حدث الأوامر على ما ذكرناه.

٦٠١ - قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾[٣] فقد بينا أن ظاهره لا يدل على أن ذلك إذا وقع يكون غير مستحق.

والمراد بذلك: أنهم دعَوا على الرؤساء المضلِّين لهم الذين أضافوا إلى ضلالهم وكفرهم إضلالَ مَن تبعهم، فدعوا عليهم بضعفين من العذاب،

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٨.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٦٨.

obeikandi.com

أحدهما لكفرهم، والآخر لإضلالهم غيرهم، وبين تعالى أن أتباعهم لا يستوجبون ذلك من حيث ضلوا ولم يُضِلّوا.

٦٠٢ - مسألة: قالوا: ثم ذكر ما يدل على أنه يجوز أن يكلف السموات والأرض بالأمان، وعلى أن العبد مع عمله الأمانة قدى يكون ظلومًا، فقال: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾[1].

والجواب عن ذلك: أن الظاهر لا يدل على ما ذكروه، وإنما يقتضى أنه عرض الأمانة على هذه الأمور، والعرْضُ ليس من التكليف بسبيل، وفيه أن الإنسان حملها فلا ظاهر لذلك لأن الأمانة إذا أريد بها الأفعال المخصوصة فوصف الإنسان بأنه حاملها، توسع؛ لأن الحمل فى الحقيقة إنما يصح فى الأجسام وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ ليس فى ظاهره لماذا صار كذلك، فتعلقهم بظاهره لا يصح.

ولم يبق إلا أن يقال: فما المراد إذا كان حمله على ظاهره لا يستقيم؟ وهذا تنازع فى التأويل وتسليم بأن الظاهر لا دلالة فيه.

وقد قال أبو على، رحمه الله، إنه تعالى أراد أنه عرض الأمانة على أهل السموات والأرض والجبال، الملائكة لم تحمل ذلك وحملها الإنسان؛ لأنه كان ظلومًا جهولا، وبين أن حمله على نفس السموات والأرض والجبال، إذا لم يصح، فيجب أن يكون المراد أهلها، ويجب أن يكون المراد المكلفين دون غيرهم؛ لأن ذلك لا يصح فيهم، ويجب أن يراد خفر الأمانة وتضييعها؛ لأن نفسها قد حملته الملائكة وقامت بها.

---

(١) سورة الأحزاب - ٧٢.

obeikandi.com

وقال أبو مسلم - رحمه الله: المراد بذلك أنا عرضنا الأمانة على هذه الأمور فى الحقيقة من حيث عارضناها بها فوجدناها تعجز عنها وتقصر، وهو الذى أراده بقوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ وأن الإنسان مع ضعفه حملها ثم لم يقم بها، وكأن المراد بذلك أن الذى لا تفى به الجبال والأرض والسموات على عظمها، قد حملها الإنسان، وتحمل التكفل بها، والقيام بحقها، فإذا عصى وخفر وضيّع، فهو ظلوم جهول يلحقه العذاب العظيم.

***

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٦٠٣ - أما قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا**﴾[١] فليس فيه أكثر من أنه قدر السير، وذلك لا يدل على أنه من خلقه؛ لأنه «قدر» كما يراد به وذلك، فقد يراد به البيان والتعريف والحكم بمقادير مخصوصة.

وإنما أراد تعالى بذلك أنه غيّر مسالكهم عن الحالة التى كانت عليها فى الخصب والعمارة، إلى خلافة، وقد فيها خلاف ما كان فى سيرهم.

٦٠٤ - وقوله تعالى قبل ذلك: ﴿**وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ**﴾[٢] لا يدل على مذهب الخوارج من أن كل معذِّب كافرٌ؛ لأن ظاهره وإن دل على ذلك يجب أن يدل على أن المؤمن كافر، لأنه يجازى على ما كان منه!

والمراد بذلك: أنه لا يجازى بعذاب الاستئصال المعجل فى الدنيا إلا من كفر وكذب الأنبياء.

٦٠٥ - وقوله تعالى: ﴿**قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[٣] يدل على أن كل واحد لا يؤاخذ إلا بذنبه وعمله، وأنه تعالى لو خلق ذلك فيهم لما سئلوا عنه ولا أخذوا به.

٦٠٦ - وقوله: ﴿**وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾[٤] يدل على ما تقوله فى العدل، وذلك إنما ذكر تعالى مما يجرى بينهم ويرجع فيه بعضهم إلى

---

(١) سورة سبأ: الآية ١٨.
(٢) سورة سبأ: الآية ١٧.
(٣) سورة سبأ: الآية ٢٥.
(٤) سورة سبأ: الآية ٣١.

obeikandl.com

بعض، من قول المستضعفين للمستكبرين ﴿لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[1] وقولهم لهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾[2] يدل على أنه لا يخلق الكفر فى الكافر؛ لأنه لو صح خلقه فيه لما صح أن يكون لهم تأثير فى كفرهم، ولما صلح أن يقولوا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾، بل كان يجب أن يقولوا إن الله صدكم وصدّنا، ولولا خلقه الضلالَ فينا وفيكم لكنا مؤمنين.

* * *

(١) سورة سبأ: الآية ٣١.

(٢) سورة سبأ: الآية ٣٢.

obeikandl.com

ومن سورة الملائكة[1]

(١) سورة فاطر.

obeikandl.com

obeikandl.com

٦٠٧ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه لا خالق ولا فاعل إلا الله، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم**﴾[١].

والجواب عن ذلك: أنه لم يطلق القول فى ذلك إطلاقًا بل علقه بالرزق. وعندنا لا خالق إلا الله يرزقنا ألبتة؛ لأن غير الله وإن كان يفعل فلا يجوز أن يفعل الرزق، وإنما نبه تعالى بذلك على أن المنعم بالأرزاق، والمالك للضر والنفع أولى أن يعبد من غيره. وقد بينا نفى الخالق على الإطلاق ليس بنفى الفعل، فهذا أيضًا يبطل تعلقهم بالآية.

وقوله تعالى: ﴿**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا**﴾[٢] ليس فيه ذكر من زين ذلك. والمراد به شياطين الجن والإنس.

٦٠٨ - وقوله: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾[٣] قد تقدم القول فيه.

٦٠٩ - وقوله: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾[٤] لا تعلق للمشبهة به؛ لأن المراد هو أنه يصعد إلى حيث يختص بالحكم فيه ولا حاكم فيه سواه، وقد بينا لذلك أمثلة من قبل، وبينا أن حمله على ظاهره يوجب أن الكلم فى الحقيقة يصعد، وذلك لا يصح فيه، وبينا أن صعود الكلم إليه إذا لم يحمل على ما ذكرناه لا يفيد، وقد بينا أن ذلك يوجب أنه تعالى على العرش، وفى السماء، دون سائر الأماكن، وقد ذكر تعالى فى الآيات خلافه.

---

(١) سورة فاطر: الآية ٣.

(٢) سورة فاطر: الآية ٨.

(٣) سورة فاطر - تتمة الآية ٨.

(٤) سورة فاطر: الآية ١٠.

obeikandl.com

٦١٠ - وقوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[١] يدل على أن المراد إثبات ذلك وتحصيله، والورود به عَرَصَة القيامة دون إثبات مكان لله، تعالى عن ذلك!

٦١١ - وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾[٢] لا ظاهر له يصح تعلقهم فى أن الكافر الذى لا يقبل، ممنوع من سماع ذلك. بل ظاهره يوجب أنهم موتى فى القبور، ولك مما لا يقوله أحد!

وإنما المراد به المبالغة فى دمهم لإعراضهم عن النظر والاستدلال والقبول.

٦١٢ - **مسألة**: قالوا: ذم ذكر تعالى ما يدل على أن ما فى جملة من اصطفاه بالرسالة من ظالم فى الحقيقة، وذلك لا يصح عندكم، فقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾[٣].

والجواب عن ذلك: أن ظاهره ليس فيه إلا أن منهم ظالم لنفسه، وقد بينا أن مرتكب الصغيرة قد يوصف بذلك من حيث فوَّت نفسه قدرًا من الثواب، لولاها لكان حاصلا.

والمراد بذلك، على ما ذكر أبو على، رحمه الله: أنه تعالى اختص بالرسالة والوحى وأنزل الكتب على الأنبياء، ثم قسم: فذكر أن منهم ظالم لنفسه بارتكاب الصغائر، ومنهم مقتصد، وهو الذى لم يرتكبها، ويفعل سائر الواجبات ومنهم سابق بالخيرات، وهو الذى يبالغ فيما يفعله من النوافل، وينتهى فيه إلى حد عظيم، وكل ذلك مما لا يليق بالأنبياء، عليهم السلام.

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٢) سورة فاطر - الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٣) سورة فاطر: الآية ٣٢ .

obeikandi.com

وقد قال غيره: إن المراد بذلك أنه أورث الكتاب المؤمنين القابلين عن الأنبياء ما أدوه من الرسالة؛ لأنه لابد أن يرثوا كتب الأنبياء من حيث قبلوا وتمسكوا، ولابد من أيصطفيهم تعالى ويخصهم بالعز والكرامة، ثم قسمهم فقال: منهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق، على ما ذكرناه.

٦١٣ - وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا**﴾[1] يدل على نفى التشبيه؛ لأنه لو كان جسمًا لما صح تسكينهما على الحد الذى قد علمناه؛ لأن الجسم لا يجوز أن يسكِّن الشىء المنفصل منه إلا ببعض جوارحه، ولا يصح أن يسكنه على غير هذا الوجه فلولا أنه تعالى قادر لنفسه يخترع الأفعال اختراعًا لما صح ذلك.

***

(١) سورة فاطر: الآية ٤١.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٦١٤ - **مسألة**: قالوا: ثم ذكر تعالى فيها ما يدل على أنه أقام الحجة على بعض دون بعض، فقال: ﴿**لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ**﴾(١).

والجواب عن ذلك: أن الإنذار إذا كان من قِبلَ الرسول فغير ممتنع أن ينذر قومه دونه من تقدمهم، إن لم يكن إرسال الرسول إليهم مصلحة لهم، فاقتصر بهم على ما كلفوه من جهة العقل. وإنما لم ينذروا بالسمع للاستغناء عنه، فلأن الحجة قامت عليهم فى سائر ما كلفوه بالعقل دونه، فبين تعالى أن قبل بعثته الرسول ﷺ، كانت الحال حال فترة لم يُبعث فيها الرسل، وإن كان التكليف قائمًا، فليس فى ظاهر الكلام ما يمنع مما ذكرناه!

وبعد، فإن المخالفين لا يقولون بجواز التكليف مع عدم الدلالة والحجج، فلابد من أن يتأولوا هذه الآيات على بعض الوجوه. وإنما يلزمهم جواز التكلف مع عدم الدلالة، على قولهم بجوازه مع عدم القدرة، ويبين أن الحاجة إلى القدرة آكد من الحاجة إلى الدلالة، فإذا جاز التكليف معه فبأن يجوز مع عدم الدلالة أولى، وإلا فالقوم لا يرتكبون ذلك على وجه!

٦١٥ - **مسألة**: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه قد يكلف ويمنع مما كلف: فقال: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ**﴾(٢).

والجواب عن ذلك: أن ظاهره يقتضى أنه جعلهم بهذه الصفة، وهذا لو ثبت لما منع مع الإيمان؛ لأن الغل والسد لا يمنعنان من الإيمان، ولو أن

---

(١) سورة يس: الآية ٦.

(٢) سورة يس: الآية ٩.

obeikandl.com

العـدو عمل ذلك بالأسـير لم يمنـعه ذلك من الإيمـان، والقيـام بما كلف، فالتعلق به فى الوجه الذى ذكروه لا يصح!

وبعـد، فإن المعلوم من حـالهم أنهم لم يكونوا كـذلك، فحـمله على ظاهره تكذيب للخبر، فالضرورة توجب صرفه إلا خلافه.

وقد بينا من قبل فى أمثـاله: أن المراد به التمثيل والتشبـيه لحالهم بحال المقـيَّد المغلول الممنـوع بالسد والحـجب، من حـيث لم ينتفع، وأعـرض عن الاستدلال وشرحنا ذلك بما يغنى عن الإعادة.

٦١٦ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل علـى أنه يخلق أعمال العباد، فقال: ﴿**وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ**﴾[1] فخبر بأنه جعل ما عملته أيديهم.

والجواب عن ذلك: أن ظاهر قوله: ﴿**وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**﴾ يقتضى الرجوع إلى أقرب المذكور، فكأنه تعـالى قال: وفجرنا فيهـا من العيون، لكى يأكلوا من ثمره، ومـا عملتـه أيديهم من المكاسب، وقد علمنا أن رجـوعه إلى هذا وإلى ما تقدم لا يصح، لاخـتلاف الغرضين، فلى إلا مـا ذكرناه. ولو حمل على ما ذكروه لتناقض؛ لأن جعله تعالى يقتضى أنه من فعله، وأنه مما عملته أيديهم: يقتضى أنه من فعلهم، وذلك بيناقض.

على أنه يؤدى إلى أن لا يفـيد؛ لأنه لا يجـوز منه تعالى أن يذكـر فى جملة الـنعم ما عملـته أيدينا؛ لأن ظاهر ذلك لا يوجب كـونه نعمـة. ومتى حملناه على أن المـراد ما يؤدى إليه عـملنا من المكاسب دخل فى باب النعم؛ لأنها عندنا من قبله تعالى، ومن جملة ما قدره من الأرزاق. فحمله على هذا الوجه الذى يليق بالآية أولى.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٥.

obeikandi.com

٦١٧ - وقوله تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[١] يدل على أنه لا يجوز أن يأخذ فى ذلك اليوم أحـدًا بذنب غيره، من الأطفال وغيـرهم؛ لأنه جعل ما ذكـروه من حكم ذلك اليوم، فظاهره يقـتضى أنه لا يجوز خلافه.

ويدل أيضًا على أن لا يجازيهم على ما يخلفه فيهم؛ لأنه يكون مجازيًا لهم على ما لا سبيل لهم إلى التـخلص منه، وهذا أعظم من تعذيب الواحد على ذنب غيره!

وقوله: ﴿**فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا**﴾ يقتـضى تنزيهه عن الظلم؛ وذلك لا يتم إلا على ما نقول؛ لأنه لو عذب فى ذلك اليوم الأطفال لم يكن فى الظلم أعظم [منه]، وكذلك لو كان سـائر من يعِّبه هو الذى خلق فيه مـا عذَّبه عليه لم يكن فى الظلم أعظم منه. ولو كان يجب أن يكون ظالما بالعذاب فى الحال ويفعله لما أوجب ذلك من قبل، فالله يتعالى عن قولهم علوًا كبيراً.

٦١٨ - وقوله: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ**﴾[٢] يدل على قولنا فى العدل، من وجوه:

أحدها: أنـه تعالى منع من عـبادة الشيـطان والقبول منـه؛ لأنه عدو. وعلى قـولهم؛ يوجب ذلك أن لا يقـبل منه تعالـى أيًا؛ لأن عداوته للكافـر أشد؛ لأن الشيطان إنما يدعو إليه ويزينه، ولله تعـالى يخلقه فيه على وجه لا مخلص له منه! فما أوجب أن لا يقـبل من الشيطان، يوجب أن لا يقبل منه تعالى على زعمهم!.

---

(١) سورة يس: الآية ٥٤.

(٢) سورة يس - الآيات ٦٠ - ٦٢.

obeikandl.com

ومن وجـه آخـر، وهو - على قـولهم - يجب أن تكون العـداوة من الشيطان لا تصح، وإنما تصـح من قبله تعالى؛ لأن الشـيطان لو دعاه، وبلغ النهاية فيه ولم يخـتر تعالى خلقه الكفر فيه لكان وجود مـا فعله كعدمه، ولو خلق فيه تعالى ذلك لو جب كونه كافـرًا وإن لم يدعه الشيطان أو رغبة فيه. وهذا يوجب كـونه تعالى هو العـدو للكافر دون الشـيطان! وذلك يؤدى إلى أمرين فاسـدين: أحدهما: أنه تعالى جعل ما لـيس بموجود فى الشيطان علة فيه! والثانى: يوجب كونه علة فيه تعالى، ونفاه عن نفسه!!

وبعد، فإنه تعـالى فعل فى الشيطان ما صـار به عدوًا لبنى آدم، ولولا فعله ذلك لم يصح كـونه عدوًا، فيجب أن يكون تعالى هـو العدو للكافر - على قولهم - من وجهـين: أحدهما: أنه فعل به الضـرر. والآخر: أنه فعل بغيره دعاءه إلى الضرر. فهـو العدو والحامل للعدو على العداوة، وقد علمنا أن العاجز عن الإضرار، بإرادته المضرة بالغير، لا يكون عدوًا فى التعارف مع ظهـور عجزه. فـكيف يقال فى الشـيطان: إنه عدو ولا سـبيل له إلى فـعل العداوة إلا بأن تخلق فيه! ولا يكون تعـالى عدوًا للكافر - على قولهم - مع أنه يخلق الكفر فيه ويجعله عليه ويصرفـه عن الإيمان وقدرته ثم يعاقبه عقابًا دائمًا.

وكيف يقـبل نقض الكفار هذا العهد من الـله تعالى مع أنه الذى يخلق فيه المعاصـى ولا يمكنه التخلص منها. وفائدة العهد: أن يكـون تذكره داعيًا إلى ما عـهد إليه من ترك المعصـية، وذلك لا يصح، مع وجود فيـه من فعل الغير على وجه لا يمكن مفارقته.

٦١٩ - وقوله: ﴿**وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾[1] يقتضى أنه بـعثه على عبادته من حيث سـهّل الطريق وأوضح السبيل؛ وذلك لا يصح إلا إذا كانت

(١) سورة يس: الآية ٦١.

obeikandl.com

العبادة من حجتهم تقع، وباختيارهم تكون؛ وإن كان تعالى هو الممكِّن لهم من فعلها.

٦٢٠ - وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً﴾[1] إنما يتم متى لم يكن هو الخالق للضلال فيهم. وإلا فوجود إضلال الشيطان كعدمه؛ لأنه لا تأثير له؛ لأنه إن اختار تعالى فيه خلق الكفر وجب وجوده، أضله الشيطان أم لا، وإن لم يختر ذلك منه فكمثل، فكيف يقال، على طريق الذم للشيطان: إنه أضل خلقًا كثيرًا، مع أنه تعالى هو الخالق للضلال فيهم، بل هو الخالق لإضلاله لهم وللشيطان أيضًا؟

فتعود الحال إلى أنه لا مضلَّ إلا الله تعالى، ولا عدوَّ للكافر إلا هو، لكنه يل ويعادى بخلقه الضلال، ويخلق الإضلال والعداوة فى غيره. وهذا ظاهر فيما نريده من إثبات العدل، وأنه لا يخلق أفعال العباد، ولا يُضلّ الكفار والعصاة.

٦٢١ - **مسألة**: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل على جواز الجوارح عليه، فقال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً﴾[2].

والجواب عن ذلك: أنا قد بينا من قبل الكلام فى ذلك.

وظاهر هذه الآية مما لا يقول به مسلم؛ لأن من يجوِّز الجوارح على الله تعالى لا يثبت له الأيدى، فلابد من حاجته إلى تأويل هذه الآية، فيكون حاله كحالنا فى تركه الظاهر، والعدول إلى التأويل.

وقد ثبت أن ذكر الأيدى هو على طريق التأكيد، وذكرنا لذلك أمثالا، نحو قول القائل لغيره: ذلك بما جنته يداك، وإن كانت الجناية بالقول

(١) سورة يس: الآية ٦٢.

(٢) سورة يس: الآية ٧١.

obeikandi.com

والكلام، فـالمراد به ما جنيـتـه. فكذلك المراد بهذه الآيـة: أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنـعامًا؛ وذكر علـى جهة الامتـنان، وبين سائر وجوه منافـعهم بالأنعام مما عدد من بعد، إلى قوله: ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾[1].

٦٢٢ - فأما قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[2] فقد بينا الكلام فيه.

* * *

(١) سورة يس - الآية ٧٣.

(٢) سورة يس: الآية ٨٢.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٦٢٣ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه يعاقب من لا ذنب له، فقال: ﴿**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ**﴾(١).

والجواب عن ذلك: أنه تعالى لم يذكر أن أزواجهم لا يستحقون العذاب، وقد يجوز أن يكونوا بهذه الصفة؛ لأن الظاهر [لا] يمنع منه، فلا يصح تعلقهم بالظاهر، ولو أن أحدنا قال لغيره: اضرب هذا، فقد جنى، واضرب هذا معه، لم يكن فى الكلام ما يدل على أن الثانى ما حاله.

والمراد بالآية: احشروا الذين ظلموا وقرناءهم الذين شاركوهم فى الظلم وأعانوهم عليه؛ لأن مَن هذا حاله، لأجل المشاركة، يوصف بهذه الصفة.

وقوله: ﴿**وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ يدل على أن جميع من تقدم ذكره عَبَدوا من دون الله تعالى، فقد دل على مشاركة أزواجهم لهم بما يوجب عقابهم.

فأما ما كانوا يعبدون من دون الله من الأصنام فغير ممتنع أن يدخلها تعالى الجحيم، كى يزداد غمهم عند مشاهدتهم لها، وتذكرهم أحوالهم معها، وعلمهم بأنهم يعاقبون لأجل ذلك.

٦٢٤ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه يخلق أفعال العباد، فقال: ﴿**قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾(٢). والجواب عن ذلك: أن ظاهر قوله: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ يقتضى أنه علة فى الأول، وقد

---

(١) سورة الصافات - الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة الصافات - الآيتان ٩٥، ٩٦.

obeikandl.com

علمنا أن قوله ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ هو تبكيت لهم، وليس باستفهام[1]، ولا يجوز أن يبكتهم فى عبادة الأصنام، ثم يقول على طريق التعليل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ إلا وللثانى تعلق بالأول وتأثير فيه، وقد علمنا أنه لا يجوز أن يكون كذلك إلا والموصوف ثانيًا، هو الموصوف أولا حتى يصح كونه علة فيه وسببًا يمنع من عبادتهم له. ولولا ذلك لخرج القول الثانى من أن يتعلق بالقول الأول. فإذا صح ذلك وجب ضرورة حمل قوله ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾. على أن المراد به الصمُّ، ليصح أن يكون فى المنع من عبادته، ومقتضيًا التبكيت والتوبيخ، ويكون كأنه قال: أتعبدون ما تنحتون من الأصنام المعمولة من الخشب والله خلقكم وخلق ذلك معكم، فكيف يصح أن تنحتوه إلهًا يعبد، مع حاجته فى خلقه إلى الله تعالى، كما أنكم تحتاجون إليه؛ ومع أنه لا يملك ضرًا ولا نفعًا، وهو تعالى المالك لذلك لكم وله؟

ومتى حمل الكلام على خلاف ذلك أدى إلى كونه سخفًا، لأنه يصير كأنه قال: أتعبدون ما تنحتون، والله خلقكم وخلق فى أيديكم الحركة! وقد علمنا أن ذلك لا يقع من كثير من السفهاء، فضلا عن الحكيم!

وليس لأحد أن يقول: إن الذى ذكرتموه زوال عن الظاهر، وقد بينتم فى جميع ما يتعلق به القوم أن تثبتوا أن الظاهر ليس معهم، وذلك أن هذا الكلام إذا ورد مورد التعليل كان ظاهره بما يتصل به من مقدمة ومؤخرة، وقد بينا أن ظاهر التعليل إذا ذكر عقب التبكيت، يقتضى ما قلناه، فلم يخرج إذًا لهذا الوجه عما نظمناه فى جميع الآى، على ما زعمه السائل.

يبين ما قلناه: أن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ لو انفرد لم يفد، وإنما يفيد إذا لق بما تقدم، وفائدته تقتضى ما ذكرناه.

---

(١) سورة الصافات: الآية ٨٢.

obeikandl.com

وبعد، فإن قوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ لابد من أن يكون راجعًا إلى ما تقدم رجوعه إليه، فيقتضى تقدير محذوف، ولا يخلو ذلك من وجهين: إما أن يريد: وما تعملون فيه النحت. أو يريد: وما تعملونه من النحت فيه، لأنا إن حملنا الكلام على عمل لا تعلق له بالأصنام البتة، اقتضى كون الكلام لغوًا. وقد علمنا أنه متى حمل على الثانى خرج من باب التعليل وصار كأنه يتعلق بالأصنام؛ لأن القوم لا يعبدون النحت الذى هو فعلهم فى المنحوت، ولا استحقوا التبكيت واللائمة على شىء يتعلق به، فيجب إذًا أن يكون محمولا على الوجه الأول، وهو ما يعملون النحت فيه، وهذا يوجب أن المراد ما قلناه من أنه خلقهم وخلق ما عملوا فيه النحت من الأصنام. وهذا مما لا ينكر.

يبين ما قلناه أن الفصيح لو قال وقد عصى غيره فى أكل أو شرب أو لباس: كيف تعصينى وقد ربيتك وأعطيتك ما تأكل وما تشرب، لوجب حمل الظاهر على المأكول والمشروب دون الأكل والرب، اللذين هما من فعله. وكذلك ما ذكرناه؛ لأن ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ بمنزلة قول القائل: «ما تأكلون» وإن كان أحدهما أخص من الآخر.

وهذا هو الواجب فى كل ما تعلق العمل به إذا كان العمل فى الأجسام المشار إليها؛ لأن الإنسان إذا قال: الصانع يعمل الخلخال، فالمراد به نفس الجسم، والنجار يعمل الباب، والحداد يعمل الفأس، فعلى هذا الوجه قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾[1] وأراد بكل هذا المعمول فيه دون العمل، وقال تعالى: ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[2] و﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾[3] وأراد

(١) سورة سبأ: الآية ١٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١١٧.

(٣) سورة طه: الآية ٦٩.

obeikandl.com

بذلك مـا صنعوا فـيه من الحبـال أو غيـرها؛ لأنها التى يصح فـيهـا التلقف والتناول، دون حركاتهم.

فهذه طريقة فى التعارف أقوى مما ادعوه لو لم يكن الكلام جاريًا مجرى التعليل أيضًا.

على أن الكلام متـى كان على ما حـملوه تناقض فى المعنى، وذلك أنه تعالى إذا أراد: واله خلقكم وخلق عـملكم، فقد وجب بذلك لا مـحالة أن يكون خالقًا لنفس عـبادتهم لأنهما من جملة العمل، ولأنه لا يصـح التفرقة بين الأعمال فى أنه تعالى يخلقها عندهم، فإذا صح ذلك وجب على هذا أن يكون تعالى كأنه قـال: أتعبدون ما تنحتون واللـه خلقكم وخلق عبادتكم مع سـائر أفعـالكم؟ وهذا يوجب زوال التبـكيت واللائمة، من حـيث قصـد به التبكيت، وهذا يتناقض، على ما ذكرناه؛ لأنه تعالى إن خلق عبادتهم فيكيف يجوز أن يـوبخهم عليـها؟! وإن خلق فيـها تحت الأصنام، فكيـف يجوز أن يوبخهم عـلى ذلك؟ وكل كلام صدر من حكـيم فحمله على مـا يناقض فى الوجـه المقصـود إليه لا يصح، والواجب حـمله على ما يشـاء ويصح، وهو الذى قلناه.

وبعد، فـإنه تعالـى حكى ذلك عن إبراهيم، عليه السـلام، فى إنكاره عليهم عبـادة الأصنام، وقوله: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾[1] إلى آخر الآية يدل على ما قلناه وذلك يوجب أنه أراد ذلك عليهم مورد الحـجاج، ليصرفهم به عما هم عليـه من عبادة الصنم، ولكى يعدلوا عن عبـادة الصنم إلى عبادة الله تعـالى. فلو حـمل الكلام على مـا قالوا لكان إبراهيـم كأنه قـال لهم: أتعبدون الأصنام. والله خلقكم وخلـق فعلكم؟ ولو أراد ذلك لكان فى نهاية

(١) سورة الصافات: الآية ٨٦.

obeikandl.com

الركاكة، وكان لهم أن يقولوا: ومـا فى أنه خلقنا وخلق أعمالنا ما يوجب أن ننصـرف عن عـبـادة الصنم، فليس الصنم نـحن، ولا عمـلنا وإنما هو ثالث لهذين الأمريـن اللذين ذكرنا، فكيف ننصرف عن عبـادته من حيث ثبت فى غيره أن الله خلقه؟ فكانت الحجـة لهم عليه ثابتة، وكل قول يؤدى إلى لزوم حجة الكفار للأنبياء، فهو فى نهاية الفساد.

فـالصحـيح إذن مـا ذكرناه من أنه بيـن أنكم تعبـدون مـا الله خلقكم وخلقه، فبأن تعبـدوا الله الذى خلق الأمرين، وهو مالك الضر والنفع، أولى من أن تعبدوا الصنم الذى فى أصل وجوده يحتاج إلى الإله الذى أدعوكم إلى عبادته، فضلاً عن سائر صفـاته. وقد علمناه أنه متى حملوه على هذا الوجه فحجته لهم لازمة، فحـمله عليه أولى. وعلى هذا الوجه سلك الحجاج الذى قبله حـيث قال: ﴿مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ﴾[1] وقال لهم: ﴿أَلا تَأْكُلُونَ﴾[2] ليتـبين ذلك للسامع أن الأصنام إذا لم يصح منها النظـر ولا الأكل ولا التصرف فهى مدبَرة، فلا يصح أن تعبد وتترك عبادة الله تعالى المدبر للخلائق.

وبعد، فإنه جل وعز حكى عن إبراهيم، عليـه السلام: أنهم كانوا عباد أصنام، وأنه، ﷺ، كان يخـاطبهم دائمًـا فى ذلك، ولم يحك عنهم الكلام فى خلق الأفعـال، وأنهم أضافوها إلى العـبيد أو إلى القـديم تعالى، فكيف يصح - مع أن هذا هو المعلوم من حـال قومه، وصدر الآيات وعـجزها، بل جميـعها، هو فى هذا الباب - أن يذكر فى خلالـه مالا يتعلق به ولا يليق بما هو فيه؟ وكل ذلك يوجب بطلان ما حملوا الآية عليه.

---

(١) سورة الصافات: الآية ٩٢.

(٢) سورة الصافات: الآية ٩١.

obeikandl.com

وبعد، فإن الأمـر لو كان كما قـالوا، وصح كونه خالقًا لتـصرفهم [لما صح]، أن يجعله عمـلاً لهم؛ لأن العمل إنما يكون عملا للـعامل بأن يوجده ويحدثه، ومتى وجب ذلك استحـال أن يكون تعالى خالقًا له، لأن بخلقه لا يفيـد إلا إخراجه من العـدم إلى الوجود، فإذا حـصل كذلك بمن عمله فـما الفائدة فى كونه خلقًا له تعـالى؟ هذا يوجب أن يكونوا قد حملوا الكلام على وجه يتناقض!

وبعد، فلو أراد تعالى بذلك أفعال العباد، على ما زعموه، لكان الظاهر لا يقتضى ما قالوه لأنا قـد بينا أن ظاهر الخلق هو التقدير، وأنه لا يمتنع من حـيـث اللغة أن يكـون الخـالق خـالقًـا لما لم يفـعله فى الحـقـيقـة، إذا دبـره وقـدره والفـاعل غيره فكان يجـب على هذا الوجه الذى ذكـروه أن يقال إنه تعـالى أراد: والله دبركم ودبر أعـمـالكم، ولا يجب كـون عـملنا خلقـا له تعالى.

وبعد، فـإن ظاهر الكلام يقتضـى أن يكون المراد بقوله: ﴿**وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ أمرًا مستأنفًا؛ لأن اللفظة تدل على الاستقـبال وقد علمنا أن ما سيعملونه، مما لم يوجد بعـد، محال أن يكون خلقًـا له تعالى؛ لأن ذلك هو صفـة الموجود على بعض الوجوه. ومتى قالوا: إن المراد بذلك ليس هو الاستقبال، بل المراد به عملهم الذى تقضى، أو الكائن، فقد زالوا عن الظاهر ونازعونا فى التأويل ويصير الكلام متناقضًا - لأنه كأنه قال: والله خلقكم وخلق المعدوم الذى لم يوجد - ويوجب أن لا يكون فى القول فـائدة، وأن لا يتعلق ذلك بما وبخهم عليه، وبكتهم به.

وبعد، فـإن كان الظاهر يوجب ما قـالوه، فيجـب أن لا يكون عملهم باطلا، ولا قـبيـحًا ولا مـتفـاوتًا، لقوله تعـالى: ﴿**مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن**

obeikandl.com

تَفَاوُتٍ﴾[1] ولقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[2] وقد علمناه متفاوتًا، ويقبح، ولابد من كونه باطلا، خصوصًا عبادة الأصنام والأوثان، فلم صاروا بأن يتعقلوا بظاهر هذه الآية بأولى من سائر الآيات فى المنع من التعلق بظاهرها، وقد علمنا أن الحكيم إذا بين بعض الأمور وأوضحها، فالواجب فى خطابه من بعد أن يترتب عليه، ومتى رتب على ذلك لم يُعد ذلك خروجًا عن الظاهر؛ لأنه يخاطب علة معهود وعرف،فإذا كان تعالى قد بين من جهة العقل أن تصرف العبد الذى يستحق به الحمد، والذم، والثواب، والعقاب، ويع بحسب دواعيه ومقاصده، وبحسب اختياره وعلمه وآلاته؛ لابد من أن يكون واقعا من جهته - لأنه لو كان فعلا لغيره لم يجب كونه موقوفًا على قدره وعلومه وآلاته ودواعيه - ثم بين من جهة السمع مثل ذلك، ونبه على أنه لا يفعل إلا الحسن الذى لا تفاوت فيه، والمتقن المحكم، فالواجب فيما دبر من الآى إذا احتمل ما يوافق، أن يكون حمله على ذلك كالظاهر المعهود المتقدم، على بيناه.

وكل ذلك يبين أن تعلق القوم بمثل هذا يدل على ذهابهم عن طريق الأدلة، عقلا وسمعًا، وقلة معرفتهم بوجوه الكلام ومخارجه وتعلق البعض بالبعض.

٦٢٥ - فأما قوله تعالى، من بعد ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾[3] فالمراد بذلك: إلى حيث أمرنى ربى. وقد بينا القول فى نظائر ذلك.

---

(١) سورة الملك: الآية ٣.

(٢) سورة السجدة: الآية ٧.

(٣) سورة الصافات: الآية ٩٩.

obeikandl.com

٦٢٦ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه يأمر بالشيء ولا يريده فقال: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[١] ثم بين فى الآية ما يدل على أنه لم يرد الذبح، فإن فداه بذبح عظيم؟

والجواب عن ذلك أن الذى.....[٢] مأمور به، وأنه ليس بمراد.....[٣] يستدلوا به على أن الذبح مأمور به لم يكن فيه دلالة على أنه ليس بمراد، بل من يقول إنه مأمور به يقول إنه مراد، ويجوز فى الأمرين البداء والنسخ على بعض الوجوه، فتعلقهم بذلك على هذا الوجه مما لا يشهد له الظاهر.

وإنما بنوه على أصولهم فى أن ما لا يقع لا يكون مرادًا لله، ورأوا أن الذبح لم يقع فقطعوا على ذلك، وحكموا عنده بأنه مأمور به وإن كان هذا حاله. وهذا جمع بين الظاهر وبين مذهب لهم، فيه التنازع. وكيف يصح فيما هذا حاله أن يعد استدلالا بالظاهر مع حاجته إلى ضم ما فيه الخلاف إليه، وما يجرى مجراه من المذاهب؟ ولا فرق بينهم فى ذلك وبين من يقول: إذا ثبت أنه ليس بمراد وقد صح أن المأمور به لابد من كونه مرادًا، فيجب أن لا يكون مأمورًا به أصلا! ومتى قالوا فى هذا القول: إنه رجوع إلى غير الظاهر، لزمهم مثله فيما قالوه.

وبعد، فإن الظاهر يقتضى أنه رأى فى المنام أنه يذبحه، فمن أين أن ذلك أمر من الله تعالى؟ وقد يرى فى المنام ذلك وغيره. بل الظاهر فيما هذا حاله أن لا يقطع بأنه أمر من الله فى الحقيقة إلا بمقدمة يعلم بها هذا من

---

(١) سورة الصافات: الآية ١٠٢.

(٢) كلام غير واضح بالأصل.

(٣) غير واضح بالأصل.

obeikandl.com

حاله، فكيف يصح تعلقهم بالظاهر؟ ومتى قالوا: قد علمنا بغير الظاهر أنه أمر من الله تعالى، فقد خرجوا عن الظاهر ودخلوا فى باب التأويل معنا.

وقد بينا فى أصول الفقه القول فى ذلك، وأنه تعالى ذكر الذبح، وأراد به مقدماته من الإضجاع وأخذ المدية؛ لأن فاعل ذلك من حيث يقرب إلى أن يكون ذابحًا يوصف بهذه الصفة، كما قيل فى مقدمات الموت من المرض المخوف: إنه موت، فقال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ**﴾[1] وقد علمنا أن الوصية لا تكون منه مع وقوع الموت.

وقوله تعالى من بعد: ﴿**قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا**﴾[2] ولما وقع الذبح وإنما فعل ما قلناه، يدل على أن المراد بالكلام ما قلناه. فإذا صح ذلك وقد فعل إبراهيم، عليه السلام، ما أريد منه، ثبت أن الذبح الذى لم يفعله ليس بداخل فيما أمر به، ولا فيما أريد منه، وذلك يبطل تعلقهم بالظاهر.

وقد بينا الكلام على من يستدل بذلك فى جواز البداء، وفى جواز النسخ قبل وقوع الفعل، فلا وجه لإعادته.

***

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

(٢) سورة الصافات: الآية ١٠٥.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٦٢٧ - **مسألة**: قالوا: ثم ذكر تعالى فيها ما يدل على أنه يجعل النبى نبيًا، والفاضل فاضلا، فقال: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ**﴾[١].

والجواب عن ذلك: [أنه لا يمتنع فيما] هذا حاله أنه يجوز أن يراد به ما يقتضيه الظاهر من إرساله إياه، وبعثه إلى الناس، فصيره بذلك خليفة من حيث يلزمهم القبول منه، والانقياد له، كما يلزمهم ذلك لو سمعوا كلامه تعالى وفهموا أوامره. ويجوز أن يراد بذلك اللطف والمعونة، فليس للمخالف فى ذلك متعلق.

٦٢٨ - وقوله تعالى: ﴿**فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى**﴾[٢] يدل على أنه قادر على الأمور قبل فعله لها، وعلى أنه يختار فعلا على فعل.

٦٢٩ - وقوله: ﴿**فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾[٣] يدل على أنه تعالى لا يضل، لأنه لو أضل لكان لا يضاف الضلال إلى الهوى وإلى الشيطان، وقد مضى الكلام فى جميع ذلك.

٦٣٠ - وقوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾[٤] يدل على أنه منزه من فعل القبيح، وأن من أضاف إليه ذلك ووصف ما خلقه بأنه باطل فهو كافر. وقد تقدم كيفية الاستدلال بذلك من قبل.

---

(١) سورة ص: الآية ٢٦.

(٢) سورة ص: الآية ٢٦.

(٣) سورة ص: الآية ٢٦.

(٤) سورة ص: الآية ٢٧.

obeikandl.com

٦٣١ - وقوله تعالى: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾[1] يدل على قولنا فى الوعيد، وذلك أن على مذهب المرجئة لا يمتنع أن يتساوى حال الفاجر والمتقى إذا كانا مؤمنين، بأن يحصل مع الفاجر من الأعمال ما يساوى عمل المتقى ويزيد عليه، بل لا يمتنع على قولهم أن يكون أرفع حالاً من المتقى، وقد علمنا أنه تعالى إنما أراد أنه لا يجعلهما بمنزلة فيما يتعلق بالثواب والعقاب؛ لأنه قد سوى بينهما فى أكثر أحكام الدنيا ونعيمها، فإذا كان المراد ما قلناه وجب أن يدل على أن الفاجر يدخل النار، وإلا أدى إلى أن يكون بمنزلة المتقى.

***

(١) سورة ص: الآية ٢٨.

obeikandl.com